المتنبي في مرآة العصر

بقلم احسان الملائكة

النقاد والباحثون في مسائل الفن اجمعوا على ان الفنانين ومن جملتهم الشعراء يتفردون – دون الناس – بمشاعر واحاسيس ومنازع ومشارب ، يصح ان نعتبرها اموراً ملازمة لشخصياتهم تميزهم عن غيرهم ، وتكاد ان تجعلهم طبقة خاصة في المجتمع الانساني – اذا صح التعبير – ويبدو ان الفنان يتفاعل مع المحسوس والمعنوى من الاشياء بطريقة مغايرة لما لدى الناس ، فهو يسمع ويبصر ويدرك بشكل لا يخطر لهم على بال . الرسام بيكاسو – على سبيل المثال – اعطى لوجوه (اشخاصه) لونا ازرق في فترة من فترات تطوره الفني .وقد فضل هذا اللون على لون الجلد التقليدي الذي استعمله الكلاسيكيون في رسومهم ، لانه وجد في الزرقة تعبيرا اكثر تلاؤما مع الفكرة التي يقصد توضيحها . وصحيح ان محاكاة الطبيعة هي احدى غايات الفن غير ان تلك المحاكاة لا يجوز ان تكون عمياء او جامدة . والرسام الموهوب هو الذي يعرف كيف يكتشف وسائله الخاصة في نقل الوقائع الى صور واشكال .

لقد كان احمد ابو الطيب المتنبي (٣٠٣ – ٣٥٤ هـ) احد اولئك الفنانين ، اذ ظلت شخصيته سرا مغلقا حير النقاد وما زال يشكل علامة استفهام كبيرة . فاذا شئنا ان نزيح الستر عن خفايا تلك النفس فان علينا قبل كل شيء ان نضعه في مكانه الطبيعي بين افراد جماعته من كبار الفنانين . والفنان يتفرد دائما بخلال وشمائل وطباع وعادات تبدو بالقياس الى ما هو معروف عند الناس شديدة الغرابة ولا يمكن تبريرها او استساغتها ، اراد الشاعر ابو العتاهية ذات مرة ان يعلن للناس توبته وزهده فاشترى من الفخار (حبًا) ضخما وفتح فيه اربع ثغرات ثم دخل فيه وجلس مخرجا اطرافه الاربعة من تلك الفتحات ، واعلن انه سيعيش على هذا الحال عقابا لنفسه ! ولما سمع تشايكوفسكي الموسيقار الروسي ان المرأة التي يحبها ستهجره صمم ان ينتحر . وكان قرب داره بحيرة قد جمدها الشتاء فخاضها حتى بلغ منتصفها ثم وقف هناك لا يريم ، معتزما ان يموت ، ولكن الناس لمحوه واعادوه الى بيته ! وكان الشاعر ابن الرومي لا يفتح باب منزله صباح كل يوم الا بعد ان يحدق في الطريق ، من ثقب خفي في الباب ليرى اول عابر سبيل ! فان كان مقبول الصورة استبشر وفتح ، وان رأى انسانا مشوه الخلقة او قبيح الصورة تعوذ بالله من الشيطان وعاد الى داخل المنزل ، وقد فارقته نية الخروج ذلك اليوم !!! والحق ان تلك المسالك الشاذة هي مظاهر تلازم حالة النبوغ . ولو كان الفنان انسانا طبيعيا مثل بقية عباد الله ، لما احتاج الى الفن يعبر به عن افكاره ومشاعره ومقاصده . ان شعوره المستمر بانه غريب ومتفرد وغير منسجم يجعله يبحث عن المخرج والملجأ ، عن السلوى والعزاء في الخلق الفني ، وكانه يسعى الى تبرير مواقفه الشاذة غير المألوفة .

وحين أطل المتنبي على هذا العالم كانت الحضارة العربية الاسلامية قد بلغت ذروة نضجها . وتملك نفوس المثقفين في ذلك العصر شعور غامر بالرضى والبهجة والازدهاء ، فمن جهة كان الاسلام قد منح الناس حالة باهرة من اليقين الذي لا تشوبه شائبة من القلق او الشك . ومن الجهة الاخرى قام المعتزلة بدورهم الكبير في المزاوجة والتوفيق بين الفكر اليوناني والحضارة الاسلامية ، بعد ان نقل المترجمون فلسفة ارسطو وافلاطون وسقراط وغيرهم الى اللغة العربية . وكان من اثر ذلك كله ان ازدهرت حركة التصنيف والتأليف والترجمة والنقل ، وعكف رجال الفكر والفن والادب على الانتاج ، وصنفت الالاف من الكتب بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسانية .

ولد ابو الطيب في احضان الفاقة ، وعانى في طفولته اشد صنوف الالم ، فقد امه صغيرا ، وشهد بعينيه فظائع القرامطة حين كانوا يغيرون بين حين وآخر على مسقط رأسه : الكوفة ، مدينة العلم والادب ، فيعيثون فيها فسادا ثم ينهبون كل ما تصل اليه ايديهم ، ويعودون الى مخابئهم في الصحراء دون ان يستطيع الخليفة المستضعف ان يوقفهم عند حدهم . وكان العراق مسرحا للاضطرابات والشغب ، وكانت المجاعات والطواعين والثورات تتعاقب على الرعية (اي الشعب بمفهومنا الحديث) والتي كانت الضحية الاولى والاخيرة لفساد الاوضاع .

اما الامراء والوزراء والتجار وملاك الارض او من يسمونهم (بالخاصة) فقد كان لهم شأن آخر . وكان على المتنبي منذ شبابه الاول ان يعيش حياة مزدوجة ، فهو الشاعر المدلل المقرب للخواص ، وهو ذاته الرجل العادي المعرض دائما الى صنوف الاذى كبقية ابناء الشعب .

وفي هذا المقام يجب الا نغفل الاشارة الى مسألتين هامتين :

الاولى ان الثقافة قديما كانت وقفا على الطبقة المتنفذة ومن يدور في فلكها . واذا اتيح لواحد من (الرعايا) ان ينهل من منابع الثقافة فانه سيتحول بالضرورة الى الطبقة الخاصة ، لانه حينئذ لن يجد لنفسه مكانا بين افراد طبقته الاولى . والمسألة الثانية هي ان الادب القديم لم يكن له اي مجال للازدهار والتفتح الا في قصور الامراء والوزراء حيث تتقارع الافكار وتتبارى الاقلام وتتنافس المواهب وتوهب الجوائز بسخاء لمن يشهد له كبار المتخصصين بالتفوق . ومن جهة اخرى فان الامراء والوزراء محتاجون الى الشعراء مضطرون الي خطب

ودهم بكل وسيلة ، ذلك لان الشاعر كان في الماضي يقوم بمهمة الصحافة والراديو وموظف الدعاية في زماننا ! وعلينا ان نتذكر ذلك جيدا كلما تعرضنا لدراسة ادبنا العربي في عصور ازدهاره ، والا فسد حكمنا ولم يعد له من قيمة .

ان الباحث في سيرة المتنبي المتتبع للدراسات المكتوبة عنه قديما وحديثا لا بد له ان يتفق مع القاضي الجرجاني (١) فيما ذهب اليه من ان اهل الادب يختلفون في ابي الطيب ، فهم بين فئتين (فاما مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته يشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ويميل على من عابه بالزواية والتقصير ، واما عائب يروم ازالته من رتبته ويجتهد في اخفاء فضائله وتتبع مسقطاته) . ولم يقف هذا الامر عند حد النقد الادبي بل ان الرجل لقي من اعدائه العنت والاذى ، وكان كثيرا ما يلوذ بالصبر او يتكلف اللامبالاة ، وحين تطفح الكاس وينفد صبره ينفجر في ثورة عارمة ، وينسب حقد اعدائه عليه الى الحسد ، ولن ندهش بعد هذا ان وجدناه يبالغ في الفخر بنفسه حتى يجاوز كل حد . اذ كان شعوره بعظمته الشخصية يعيد اليه راحته المسلوبة فتهدأ نفسه ويسكن قلقه .

وثمة موهبة اختص بها ابو الطيب دون الشعراء ، كان ذا قابلية خارقة في اثارة غيظ (الكبار) منه . دعاه الصاحب بن عباد ، وكان مقصد الادباء والشعراء ، وتلهف الى قدومه ، ولكن شيئا بدا للمتنبي ، فادار وجهه ، ورفض أن يلبي الدعوة ، ولم يكلف نفسه حتى الاعتذار !! ومن ذلك اليوم انحاز الصاحب الى جانب الاعداء مع ان الروايات تشير الى شدة اعجابه بشعر المتنبي . ثم الف كتابه في (الكشف عن مساوىء شعر المتنبي) . وطمحت نفس الوزير المهلبي الى مدائح ابي الطيب وارسل اليه يستدعيه ، وما كاد ابو الطيب يرى احوال المهلبي الماجن حتى اشمأزت نفسه فغادر المكان ولم يعد اليه !! وابى ان يمدح المهلبي ! فهاج الوزير وماج ، وأسرع يغري الماجنين من شعراء بغداد ويؤلبهم عليه،ولم يكن ابن حجاج أو ابن سكرةفيحاجة الى منيحرضهم علي ابي الطيب ، اذ كان الحسد يتآكل قلوب صغار الشعراء جميعا . كما يروي الثقات . ولم يكتف المهلبي بكل ذلك بل بعث اليهالاديب المعروف بالحاتمي يناظره ، وكانت النتيجة ان ظهرت (الرسالة الحاتمية) تلعن وتشتم وتلصق كل نقيصة في خيال كاتبها ، بالمتنبي !

وفي بلاط سيف الدولة الحمداني غضب ابو فراس الحمداني من ابيه ابي الطيب وترفعه وكبريائه وابائه ، فكان يؤلب عليه ادباء البلاط من مثل ابن خالويه وابي علي الفارسي .

ولم يكن الامر بافضل من ذلك في بلاط كافور الاخشيدي بمصر . فقد برز له الاعداء ، وكان منهم الوزير ابن حنزابة ، الذي ذكر الخطيب التبريزي في شرحه لديوان المتنبي انه المقصود ببيتيه :

وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهالي السواد ... يدرس انساب اهل الفلا

وتمت المأساة واكتملت فصولها حين اسود قلب فاتك الاسدي بالحقد عليه ، فجمع له جمعا من قطاع الطرق ، وهاجمه وقتله في معركة غير متكافئة .

ولو رجعنا الى ديوان الشاعر نتفحصه ونتامله لتكشفت لنا الحقيقة : حقيقة مشاعره ازاء مواقف الاعداء . فهو يشكو الدهر ، ويتوجع من كيد الناس واصفا اياهم بالسفلة والصغار والطغام والحساد والمتشاعرين والكذابين يقول :

افاضل الناس اغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

او يقول :

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فلا اعاتبه صفحا واهوانا
وهكذا كنت في اهلي وفي وطني ... ان النفيس غريب حيثما كانا

او يقول :

أعادي على ما يوجب الحب للفتى ... وأهدأ والافكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فانه ... اذا حل في قلب فليس يحول

او يقول :

ارى المتشاعرين غروا بذمي ... ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

او يقول :

ودهر ناسه ناس صغار ... وان كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام
وشبه الشيء منجذب اليه ... واشبهنا بدنيانا الطغام

ولم يغب عن باله انه غريب بين الناس . يقول :

وحيد من الخلان في كل بلدة ... اذا عظم المطلوب قل المساعد

ولو تساءل متسائل عن مظاهر الشذوذ في خلق المتنبي ، وعن علة كراهية كل اولئك الناس له فانه سيجد الجواب الشافي في احاديثهم عنه . فلنصغ جميعا اليهم ولننصت جيدا . يقول ابو القاسم الاصفهاني (١) (المتنبي في الجملة خبيث الاعتقاد ، كان في صغره قد وقع الى واحد من المتفلسفة فهوسه واضله . اما ما يدل عليه شعره فمتلون ، فمرة يذهب مذهب السوفسطائية ، وطورا الى مذهب التناسخ ، واخرى الى مذهب الغضائية ، او الى مذهب الشيعة ، او مذهب من يقول بالنفس الناطقة او مذهب الحشيشية) .!

ماذا ترى ـ أيها القارىء في احكام هذا المتأدب الاصفهاني؟ اتوافقه على ما نسبه الى الشاعر من خبث المذهب استنادا الى مزاعمه المضطربة المضحكة وغير المنطقية التي ان دلت على شيء فعلى انه يهرف بما لا يعرف ويتدخل فيما لا يفهم ؟ اما اذا شئت ان تفهم سر الحاحه على نسبة الضلالة الى الشاعر ، فان عليك ان تعلم ان الاصفهاني انما الف كتابه لبهاء الدولة البويهي ردا على دفاع ابن جني عن صديقه المتنبي . اما البويهيون فلهم حديث طويل ـ ليس هذا موضعه ـ مع شاعرنا المتحمس لقومه العرب المفرط في حبه لهم .

ويمضي الاصفهاني في حديثه قائلا : لما انشد المتنبي كافورا قوله:

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

قاصدا ولاية صيداء ، اجابه كافور (لست اجسر على توليتك صيدا لانك على ما انت عليه تحدث نفسك بما تحدث . فان وليتك فمن يطيقك ؟) وهذا الخبر ظاهر التعمل والكذب . اذ كيف يعقل انيجاور رئيس امتد سلطانه من مصر الى الشام الى الحجاز ، رجلا يأتي اليه لنيل هباتهَ بمثل هذه الطريقة ؟

ثم لا يكتفي الاصفهاني بايراد تلك الاخبار التي قصد بها ان يضع من منزلة المتنبي ، وانما يختم حديثه بالتهجم على الشاعر تهجما يثبت تحيزه وسوء نيته . يقول (ولم تكن في المتنبي فروسية وانما كان سيف الدولة سلمه الى الرواض فاستجرأ على الركض ، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله ! اما عن شعره فهو سريع الهجوم على المعاني يقبل الساقط الردىء كما يقبل النادر البديع . وفي متن شعره وهي ، وفي الفاظه تعقيد وتعويض) !! وبهذا يفضح الاصفهاني نفسه بنفسه ويجاهر بالعداوة وتكاد الفاظه تصيح معترفة بانه رجل مأجور يكتب بعد ان قبض الثمن .

لقد انصب اهتمام حساد المتنبي واعدائه على بذل محاولات يائسة القصد منها التهوين من شأنه في عالم الشعر ، والبحث عن نقائصه وتعداد التهم والعيوب والسقطات عليه ، فعل ذلك الحاتمي في رسالته سيئة الصيت ، وفعله ابن سكرة وابن حجاج في هجائهما المخزي ، ولكن لجميع محاولات هؤلاء باءت بالفشل والخذلان ، لان سيرة المتنبي وشعره يكذبان كل ما ذهبوا اليه . لقد كان شوكة في حلوقهم .

---

١ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي .

١ ـ ايضاح المشكل لشعر المتنبي ـ ابو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني .

وما اصدقه حين وصفهم ووصف نفسه بقوله :

جوهرة تفرح الشراف بهـا وغصة لا تسيغهـا السفلـة

كان ذلك موقف الاعداء . اما الوفائع ، اما سيرة الشاعر ، امـا شعره ، اما روايات أنصاره فانها الابواب التي ندخل منها الى عالمـه لنتعرف اليه ونكتشف الحقيقة بأنفسنا . وسنورد احدى تلك الوقائع :

يقول ابو الطيب :

اذا صديـق نكـرت جانبـه لم تعيني في فراقه الحيل

في سعة الخافقين مضطرب وفي بـلاد من اختهـا بـدل

ذلك كان لسان حاله بعد خيبة أمله في كافور الاخشيدي . وشعر كافور بنوايا ابي الطيب واقشعر بدنه حين تخيل ما سوف يجود به قريحة الشاعر ضده ، فرصد عليه العيون يرقب حركاته ويترصد خطاه ليحول بينه وبين مغادرة ارض مصر . وكان المقام قـد طال على ابـي الطيب وأحس بأنه يختنق . ودارت في رأسه الافكار :

ليس عزما ما مرض المرء فيـه ليس هما مـا عاق عنـه الظلام

واحتمال الاذى ورؤيـة جانيـه غـذاء تضـوى بـه الاجسـام

وهل هرب من صديقه وأحب الناس اليـه سيف الدولة علـي ، ليعيش مع عبد (مرت يد النخاس في رأسه) :

يهون علـى مثلي اذا رام حاجـة وقوع العوالي دونهـا والقواضب

اليك فاني لست ممن اذا اتقـى عضاض الافاعي نام فوق العقارب

ومضت الايام والاسابيع فهدأ كافور واطمأن ، بعد أن أحكم طـوق الرقابة حول ابي الطيب . ولكن أنى له ان يعلم بما كان يجري ؟ ففـي عشية كل يوم كان الشاعر الحذر يخرج الـى ظاهر المدينة ، قاصـدا مشارف البادية ومعه كل ما خف حمله من متـاع وكتب وطعام وماء ، يخفيه هناك استعدادا ليوم الرحيل ، ثم يعود الى المدينة ينشد الناس قولـه :

ذراني والفلاة بـلا دليـل ووجهي والهجير بـلا لثـام

فانـي استريح بـذي وهـذا واتعـب بالاناخـة والمقـام

ولمـا صـار ود الناس خبـا جزيت علـى ابتسـام باتسام

يحب العاقلون علـى التصافي وحب الجاهلين علـى الوسـام

اقمت بارض مصر فـلا ورائي تخب بـي الركـاب ولا امامي

قليل عائـدي سقـم فـؤادي كثيـر حاسدي صعب مرامـي

وضاقت خطـة فخلصت منهـا خلاص الخمر مـن نسج الغدام

وفارقـت الحبيب بـلا وداع وودعـت البلاد بـلا سـلام

وكان له صديق ذو صلة بالاعراب ولـه دراية بمسالك الصحراء فأعانه في كل حاجته وسهل له سبيل الفرار . وفي فجر العيد وكـان كافور على عادته يقسم الصدقات على الفقراء . تحركت قافلة صغيـرة تضم المتنبي وعبيدا له يحملون أمتعته وكتبه ويرافقونه فـي الرحلـة الطويلة . وسار الركب في تيه سيناء سالكا سبلا مجهولة لا يعرفها غير اعراب البادية ، ومتغلغلا في اعماق الفيافي المرعبة التي يلفها السكون والوحشة ولا يسمع فيها غير عزيف الريح وكأنه وسوسة الجن ! وعلـم (الاسود) بهرب الطريدة . فارسل يسد عليه مسالك السفر جميعـا وبعث الى القبائل القاطنة على الطريق يأمرها بملاحقة الشاعر وهيهات!

وبعد ثلاثة اشهر بلغت القافلة الكوفة . ثم وردت الاهاجي واحدة بعد الاخرى تصك اذني كافـور . ودوت الحواضر والبوادي بالمقصورة الخالـدة :

الا كـل ماشيـة الخيزلـي فـدى كـل ماشية الهيذبـى

وكـل نجـاة بجاويـة خنوف ومـا بـي حسن المشى

ولكنهـن حبـال الحيـاة وكيـد العـداة وميط الاذى

ضربت بها التيـه ضرب القمار امـا لهـذا وامـا لـذا

لتعلم مصـر ومـن بالعـراق ومـن بالعواصم انـي الفتـى

وانـي وفيـت وانـي أبيـت وانـي عتـوت علـى مـن عتـا

ونـام الخويـدم عـن ليلنـا وقـد نـام قبـل عمـى لا كـرى

وكـان علـى قربنـا بيننـا مهامـه مـن جهلـه والعمـى

هذه الحادثة تلقي الضوء على أحد جوانب شخصية ابـي الطيب فقد وجدناه رجلا ابيا لا يقيم علـى ضيم ولا يستكين امام القوة ، ولا يحاول مخادعة نفسه وتمنيتها الاماني :

ليس التعلل بالآمـال مـن ادبـي ولا القناعة بالافلال مـن شيمي

ردي حياض الردى يا نفس واركبي حياض خوف الردى للشاء والنعم

ميعاد كل رقيق الشفرتين غـدا ومن عصى من ملوك العرب والعجم

ولقد كانت ارادته من حديد وكرامته فوق اي شيء في الدنيا :

غثاثـة عيشي ان تغث كرامتـي وليس بغـث ان تغث المآكـل

لقد كان ازاءه هدف يسعى اليه ويبذل دونه حتى الحياة :

يقولون لي ما انت في كل بلـدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل انيسمى

انه لا يعجب الا بالابطال ولا يتعشق الا المجد والخلود . وكم يحتقر ذلك الصنف من البشر ، الذي يأتي الى الحياة ثم يذهب ، وكأنه لـم يكـن ولم يوجـد :

في الناس أمثلـة تدور حياتهـا كمماتهـا ومماتهـا كحياتهـا .

بل انه يكاد يشذ عن الطبيعة البشرية . فالناس ينشدون الراحة والرفاهية والسعادة والطمأنينة والاستقرار ،اما هو فاقصى لذته في الاخطار والمتاعب والحركة والسفر والمغامرة :

سبحان خالق نفس كيف لذتهـا فيما النفوس تـراه غاية الالـم

ولكن ما سر هذا الحب هذا الوله بالاخطار والمشاق ؟؟ فلنستمـع الى جوابه :

تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من أجبته تجدي مثلي

محب كني بالبيض عـن مرهفاته وبالحسن فياجسامهن عن الصقل

وبالسمر عن سمر القنا غير انني جناها احبائـي واطرافها رسلي

اما المنع الرخيصة التي يتقاتل من اجلها الناس ، فهي لا تثير لديه اي اهتمام :

ومراد النفوس اصغر مـن ان نتعـادى فيـه وان نتفانـى

فاذا شئـت ان تتعرف الى سر فؤاده ونزيح الستار عن هوى قلبه فسوف ترى انه لا يتعشق سوى النفوس الجميلة ذات الشمائـل الحلوة فذلك وحده الذي يثير اعجابه وافتتانه :

الـى ذي شيمـة شغفت فؤادي فلولاه لقلـت بهـا النسيبـا

فهل نعجب بعد هذا اذا رأيناه يصفي الود ويبذلـه كلـه خالصا لصديقه علي (سيف الدولة الحمداني) البطـل المقـدام ، والاديب الالمعي ، والعربي الشهم اذ يرى فيه تحقيق آمال قومه العرب في النجاة من مطامع الفرس والترك والروم :

لحب ابن عبدالله اولى فانـه بـه يبدأ الذكر الجميل ويختـم

اطعت الغواني قبل مطمح ناظري الـى منظر يصغر عنـه ويعظم

اما مفارقته لصديقه الحبيب سيف الدولة فتلك هـي الواقعـة الثانية التي نستطيع بها ان نزيح حجابا آخر عـن شخصية المتنبي . ولقد ظلت علاقة المتنبي بالامير سيف الدولة لغزا من الالغاز ، وكثيرا ما اوقعت المؤرخين والادباء في حيرة شديدة، فلم يجدوا لها تفسيرا ولم يتوصلوا الى أي حل للغز.ولست أنوي في هذا المقام التعرض لذلك الموضوع اذ انه اوسع من ان تستوعبه هذه المقالة . ولكنني ساكتفـي بالتحدث عن موقف المتنبي من صديقه الامير بعـد ان وقعت القطيعة بينهما وانقطع حبل الود .

لقد أكره ابو الطيب على مغادرة حلب بعـد ان زادت المضايقات من ادباء البلاط دون ان يحرك سيـد البلاط ساكنـا . وخادع نفسه ومناها بان سيف الدولة لا يعلم بما يجري . وراح يلفت انتباهه ويحذره وينـذره :

يـا مـن يعـز علينا ان نفارقهم وجدانـا كل شيء بعدكم عـدم

ان كان سركم مـا قـال حاسدنـا فمـا لجـرح اذا ارضاكم ألـم

اعيذها نظـرات منـك صادقـة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع اخي الدنيا بناظـره اذا استوت عنده الانوار والظلـم

سيعلم الجمع ممن ضـم مجلسنا باننـي خير مـن تسعى بـه قـدم

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي ... واسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت يرتطم
الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولما تحقق لديه الا جدوى من العتاب وان قلب صديقه قد تغير عليه ، لبس الليل درعا ومضى الى دمشق التي كانت تحت سلطان الاخشيديين فدعاه كافور الى مصر ليمدحه .

ودخل ابو الطيب على كافور لينشده اولى مدائحه فماذا قال ؟ لنستمع :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى ... صديقا فاعيا او عدوا مداجيا
اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة ... فلا تستعدن الحسام اليمانيا
حبيتك قلبي قبل حبك من نأى ... وقد كان غدارا فكن انت وافيا
واعلم ان البين يشكيك بعده ... فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين غدر بربها ... اذا كن اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصا من اذى ... فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
رأيتك تصفي الود من ليس صافيا ... اقل اشتياقا ايها القلب ربما
خلقت الوفا لو رجعت الى الصبى ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وهكذا يوجه الحديث لا الى الممدوح الجديد المتلهف الى القصائد التي ستخلده ، وانما الى نفسه يحاول تسليتها عن الماضي الجميل عن عهد سيف الدولة وترتسم امام اعيننا صورة شديدة الوضوح للصراع النفسي الذي كان يعذب روحه . فهو حائر بين كبرياء نفسه وهوى قلبه ، وهو يتوسل الى قلبه تارة ويوبخه اخرى ، لعله يعينه على التجلد والصبر ، ولكن عبثا فالدموع تكاد تتفجر من بين الالفاظ الحزينة المؤثرة ، وهو سيتجرع كأس العذاب حتى الثمالة .

ويبذل كافور محاولات وجهودا لاستمالة قلب الشاعر ويقدم الهدايا والاموال ، ولكن روح ابي الطيب ترفرف ابدا على بلاط سيف الدولة ، والفراق صار شغلا شاغلا له ، فهو لا يعبأ حتى بأصول المجاملة :

فراق ومن فارقت غير مذمم ... وأم ومن أممت خير ميمم
رحلت فكم باك باجفان شادن ... علي وكم باك باجفان ضيغم
فلو كان ما بي من حبيب مقنع ... عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رميي ومن دون ما أتقى ... هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

وحين يصحو من الحلم الجميل متذكرا انه يخاطب كافورا لا سيف الدولة يستمر في خشونته نحو كافور المسكين ، لانه في الواقع لا يفكر فيه الا كوسيلة يتحدى بها سيف الدولة . يقول مخاطبا كافور :

ابا المسك ارجو منك نصر اعلى العدى ... وآمل عزا يخضب البيض بالدم
لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها ... سرور محب او مساءة مجرم

وتمضي الايام وتنقضي الشهور ، والاموال تنفق على الشاعر بسخاء في مصر ولكن قلبه حزين يائس وتعيس :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ... ثم استمر هزيري وارعوى الوسن
وان بليت بود مثل ودكم ... فانني بفراق مثله قمن !!

ويأتي عيد ويذهب عيد ولكن دنياه سوداء كالحة :

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى ام لامر فيك تجديد
اما الاحبة فالبيداء دونهم ... فليت دونك بيدا دونها بيد
يا ساقيي اخمر في كؤوسكما ... ام في كؤوسكما هم وتسهيد
اذا اردت كميت اللون صافية ... وجدتها وحبيب النفس مفقود

ثم يغير ابو الطيب نهجه ويرفض ان يمدح كافورا بل يتحول الى هجائه ، وهو ما زال في مصر ، وحينذاك يتخذ من شخص سيف الدولة عزاء وسلوانا كي ينسى حقارة كافور وضعته (ذلك كان رأيه في كافور) :

اريك الرضى لو أخفت النفس خافيا ... وما انا نفسي ولا عنك راضيا
فان كنت لا خيرا افدت فانني ... افدت بلحظي مشفريك الملاهيا

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ... ليضحك ربات الحجال البواكيا

انه جذل سعيد بهذه اللهجة القاسية اللاذعة لانه يدري بمدى فرحة سيف الدولة حين سيسمعها وسيتشفي بمنافسه كافور وبذلك سوف يستعيد رضاه ، وسيتصالحان من جديد !! وبالفعل فقد عاد سيف الدولة يسترضي شاعره بالهدايا الثمينة يرسلها بيد ابنه الامير الشاب كي يتأكد المتنبي من معزته في قلب صديقه القديم ، ويقبل ان يرجع الى بلاطه . ولكن الشاعر كان قد عرف من اخلاق سيف الدولة ما يمنعه من ذلك فراح يكاتبه متظاهرا بانه سيعود وهو لا ينوي العودة!!

اما الواقعة الاخرى التي ترسم صورة دقيقة لخلق المتنبي والوقائع اكثر من ان نحصى لو كان المجال يسمح - فهي حادثة سفره الى شيراز . فقد لاق عضد الدولة البويهي الى مدائح المتنبي اسوة ببقية الامراء المعاصرين له ، فبعث الى الوزير الكاتب ابن العميد يأمره ان يسعى في اقناع الشاعر بالسفر اليه . وكان المتنبي حينئذ في ارجان مع ابن العميد ينشده مدائحه الرائعات ، ويعلن استقرابه من قابلية هذا الكاتب الكبير في الجمع بين المتناقضات :

ما تعودت ان ارى كأبي الفضل وهذا الذي اتاه اعتياده
عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده !

وفي الطريق الى شيراز مر ابو الطيب بشعب بوان وهو متنزه ساحر المناظر أسر لب الشاعر ، ولكنه لم يستطع ان ينسى ان اهل هذا المكان هم اعداء قومه العرب ، فاشار الى ذلك في ابياته المؤثرة التي قالها في وصف الشعب :

مغاني الشعب طيبا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان !
ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

وأبت عليه مروءته ان يترك فرصة مثل هذه تمر دون ان يستفيد منها ، فقارن بين الشعب الاعجمي ودمشق العربية ، وافتخر بالكرم العربي المشهور وكأنه يعرض ببخل اهل شيراز ! وحين دخل على عضد الدولة جابهه بقصيدته الغريبة المطلع :

اوه بديل من قولتي واها ... لمن نأت والبديل ذكراها

ووجدناه مرة اخرى يعاود محاولته السابقة في ذكر دمشق وحمص وخناصرة ، وكأنه يريد ان يذكر عضد الدولة بانه عربي شديد الاعتزاز بقومه وبعروبته وبذلك يرفع من منزلته في عيني ممدوحه ولو بالرغم عنه :

شامية طالما خلوت بها ... تبصر في ناظري محياها
كل جريح ترجى سلامته ... الا فؤادا رمته عيناها
أحب حمصا الى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبنان وثغري على حميا ها

تلك مواقف وطنية يقفها ابو الطيب في وقت او زمان لم يكن الناس يميزون مثل هذه المشاعر ، اذ كانت الروابط المعروفة هي روابط الدين والروابط المذهبية القبلية . ولعل تلك الغيرة والحمية الوطنية هي العلة الرئيسية التي بغضت المتنبي الى بعض المستشرقين الاوروبيين في العصر الحديث ، فهم يهاجمونه في كتبهم بمناسبة وبدون مناسبة .

اما شعره فهو سجل دقيق وصادق وكامل لسيرته ولخلقه اذ انه لم يكتب بالمداد وانما سطر بدم القلب ورعشات الروح والمرء حين يعجب بشعر احد الشعراء يسعى للاطلاع على سيرته ورأي معاصريه فيه ليزداد له تفهما ومنه اقترابا . اما اذا فتح ديوان المتنبي وبدأ يقرأ فيه . فانه لن يحتاج معه الى شيء . ان شعره سيغنيه عن كل شرح وكل وصف وكل تفسير . سيرى الشاعر امامه : رجلا مؤمنا بالبطولة متعشقا للمثل العليا ، لايعرف هدفا للحياة اسمى وانبل من نيل العلى وتحقيق الامجاد .

جد ابو الطيب في البحث عن الجمال ، شأنه في ذلك شأن كل فنان على وجه الارض ، فاين وجده ؟ لقد رآه متجسدا في النفس البشرية حين تتسامى الى اقصى درجات العظمة والكمال . وهو في

قمر الصباحات المنحرة

لي صباحاتي أذا ما احترقت ضوء فتيلا
وصباحاتي أذا أحتقرت في مقبض البابِ ،
لتستجدي العويلا
وصباحاتي أذا ما انتحرت عاما قصيرا أو طويلا .
معتما كان مداري ،
غرقت كل نجومي في سماء باهته
ألف عام أغبر ، تطوي ليالي عصور ميته
قمري الناحل ما نام ليالي الموتِ ،
ما نام ليالي الزوبعه
طالما سال حليبا في الخيامِ
كورته امسيات الجوع أطباق طعامِ
وسريرا ناصعا تفرشه أنقاض تاريخي ،
وأشلاء عظامي
في سماوات انكساري واحتقاري
قمري كان صعودي وانهياري
حارسي الليليّ في صيف المنافي والسجون
شدّه الجلاد جرحا ساطعا فوق الجبين
من مدار مغلق حول مدارِ
لمدار مغلق حول مدارِ
قمري كان هواي الساهر العينِ ،
على بؤسي حنيني
وعلى طول انتظاري
فارسا منطفئا بين جدارِ وجدارِ

* * *

قمري الناحل مطروح على باب الظلامِ
طائرا في طائر الرعب المدمّى
عائدا من سفر الدهرِ ،
ومن منفى الخيامِ
عابرا ألف مدار ومدارِ :
عبر الصيف الذي ينسلّ ،
من أفق محمّى
وشتاء ناحلا ينحلّ اوجاعا وحمّى
وخريفا طاعنا يمطر عتمات ودها .
عابرا ألف جدار وجدارِ :
عبر النهر الذي ينساب في موت بطيءِ
عبر النهر ، ليحيا النهر في الموج الوضيءِ
وهج يسطع حتى القلب في كهف وطيءِ
وهج يطلع من جرح الى ليل صديءِ

* * *

قمري يطلع من كل جدار وجدارِ
عابرا ألف مدار ومدارِ
وأنا من وجهه ، أفرش باحات لعيني ،
وباحات لداري
وأنا أوصد للعالم أبواب الظلامِ
وأنا أسند للعالم أنقاض الايامِ
وأنا أبدأ للعالم أحلام النهارِ

الخرطوم

عبد الرحمن عبد الله

ذلك لم يقنع بان يكون حامل مثل وحسب ، بل كان مثقفا على الطريقة الاسلامية الحقة (على المؤمن ان يزيل الباطل بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان) فليس بعجيب بعد هذا ان يشتد اعجابه بالامام علي لانه يرى فيه تحقيقا لقوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

وهكذا نجد المتنبي يخالف غيره من الناس في مسألة أساسية : ان الرؤى وعالم الواقع يمتزجان في نفسه ويتشابكان بحيث يعجز عن التمييز بين الحقيقة والخيال . بين ماهو كائن وما يجب ان يكون ، بين صلابة العالم المادي الذي يعيشه وبين دنيا المشاعر الشفافة التي يحسها دون ان يلمسها . كان يحلم دائما بالنفوس الحلوة التي تشغف فؤاده فلماذا لايجدها بين الناس ؟ ذلك هو سر مبالغاته المشهورة في الافتخار بنفسه ، والتمدح بشمائل زعماء زمانه . ولم تكتف عيناه برؤية دنيا الواقع وحده وانما امتدت رؤياه الى عالم المستقبل الجميل حين سيتعلم الناس الا يفصلوا بين القول والفعل ، بين المثل الاعلى وتحقيقه . لقد كان يضنيه ان يرى العامية والبشاعة والصغار والشراهة واللؤم والخسة هي المظاهر السائدة المتغلبة على حياة اغلب الناس ،وكان يتصور انه يستطيع اذا حكم ولاية او ولايات ، ان يغير هذا الواقع المر ويبدله الى عالم جديد نبيل مثالي ـ ربما على طريقة افلاطون في جمهوريته الفاضلة . وكان يرى انه اجدر الناس بتحقيق ذلك الهدف لشجاعته وعفته وابائه وترفعه عن الدنايا والصغائر .

وفي سورة الحماس والاندفاع الصادرين عن قلب فنان طفل ،غفل عن مسألة أساسية ، اذ نسي ان الفابليات والمواهب على اصناف، وان من كان ميدان بطولته الشعر والفن ، يعجز أن يقفز على حبال السياسة، لاسيما في تلك الاوضاع الفاسدة التي عاصرها .

لقد كان شعر المتنبي ملحمة رائعة قدمت اصفى صورة للانسان حين يريد ، وحين يختار ، وحين يعرف السبيل السوي الذي ينبغي له ان يجتازه فيمضي فيه بعزيمة تهد الجبال . وكان يسعى الى المجد فحصل عليه ، ودخل اسمه في سجل الخلود . وما كان اصدقه حين قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

بغداد

احسان الملائكة